

تطور العربية رهن بتطوير الفكر العلمي عند العرب

ليس في العربية لأن ميسراً طاجة الباحث

الأستاذ عبد الرزاق محي الدين

رئيس المجمع العلمي العراقي (بغداد)

1 - الاختلاف القائم بين لغة البيت والسوق والحديث الدارج من جهة وبين لغة الكتابة والخطابة من جهة أخرى . مما دام الحديث الدارج يجري بلجة غير معربة ، وبمفردات يذكر فيها المحرف والمجيئ سببيطاً الفرد العربي مواجهها لصعوبة تعلم الفصحى العربية وشاعراً بثقل تعلمتها .

ان اختلاف اللهجات الناشئة من ام واحدة امر يقتضيه طبيعة كل لغة تتسع او تتبعاد اطرافها ، ويستحيل بذلك الغاء جملة الفوارق فيما بذل من جهد ، ولكن وحدة الكتاب المدرسي في التعليم ووحدة وسائل الاعلام الاخرى ستمكن — دون شك — من تقارب اللهجات ، وتخفيف الفوارق بينها ، وستساعد بمرور الايام على ايلاف الفصحى العربية .

وبمحض المقارنة بين ما كان عليه الفرد العربي قبل خمسين عاماً وبين ما هو عليه الان تشهد اللهجات العربية المختلفة وقد اخذت تلتقي على كثير من المفردات والتعابير حتى في الاوساط العالمية .

2 - كتابة العربية : وتبعد المشكلة في ضبط حروف المفردة . ذلك ان القاريء المبتدئ والشادي لا يجد لحركة الحرف اداة مكتوبة ضمن الكلمة المكتوبة بحيث ينطبقها مضبوطة بتوجيه من الحركة — كما هو الحال في اللغات الاوربية — ولذلك فالقاريء مضطرك ان يهتم الى حركة غير مكتوبة ، فيتردد بين الحركات المختلفة للحرف .

والحل الضروري في رأيي ان يهتم الى طريقة تكتب فيها الحركات ضمن حروف الكلمة وبذلك

قبل الاجابة على السؤال الاول أود ان استوضح ماذا يراد من كلمة « العالم » ؟ اهو العالم العربي ام العالم جملة ؟

فإن يكن الثاني او هو ما يقتضيه اطلاق كلمة « العالم ») فالجواب عليه :

ان انتشار اي لغة انتشاراً عالياً يتوقف على امور كثيرة ، يرتبط احتمالها برمركز الامة العلمي والحضاري ، ويزيلتها الدولية ، وباستشعار امم العالم ضرورة تعلم لغتها للتعامل معها بفهم ما عندها ، والتقاهم معها ، اما للانتفاع بما لديها من علم او فن او الاحتراس من خطرها وسطوتها .

وكون تعلم اللغة ويسير انتشارها — ومنها العربية — صعباً او ميسراً يأتي في المرحلة الثانية من الاسباب . فاللغة العربية يوم كانت لها دولة ذات شأن وتأثير في العالم تعلمتها امم مختلفة ، وكتبت وتحدثت بها شعوب بعيدة وقريبة ، ولم يحل بينها وبين ذلك صعوبتها وبعدها عنها ، هذا لكان سلطونها وسمو دعوتها ، وتأثير الامم بيدهما .

واذن ، فسبيل انتشار العربية بين امم العالم ان تعود الامة الناطقة بها ذات شأن علي يغرى الامم الأخرى بتعلمها ، او يضطرها الى تعلمها . وهذا فيما اتوقع واقع مقبل قريباً ان شاء الله .

واذا كان المقصود من كلمة « العالم » العالم العربي وهو ما اظنه مقصوداً في السؤال ومن اللغة العربية « الفصحى العربية من لهجاتها » فاهم المشاكل في نظري ثلاثة :

ان حدوث اللحن على السنة الناطقين العرب ليس شيئاً جديداً تميز به هذا العصر ، بل ليس شيئاً جديداً حتى على العمصور الإسلامية الأولى ، ولست اناخشى ان ازعم ان اللحن قائم قيام اللغة العربية ، لهذا لا اجد سبلاً لامكانية التخلص من اللحن .

ولست افتر الشفوذ والن دور والقلة المأثورة عن العرب في كتب النحو الا نوعاً من الخروج على القواعد العامة ، نتيجة الجهل بها ، وعدم الثاني لكل الناطقين ان يتزموا القاعدة العامة .

اريد ان اخرج من هذا الى ان ظاهرة اللحن ظاهرة طبيعية كان وسيظل الخلاص منها امراً مستحيلاً على مجموع افراد الامة . وان التاريخ الذي حدد فيه ظهور اللحن كان تحديداً لانتشاره وكثرته لا مجرد حدوثه .

4 - اللغة العربية من حيث الوناء بالافكار وبالخواطر العليا صالحة للتدرس الجامعي من دون شك ، وهي قد كانت كذلك يوم ترجمت اليها علوم الاولين مما لم يكن لها عهد سابق به ، بل انها استطاعت بعد فترة ان تصبح الوعاء الوحيدي للمعرفة والمصدر الذي رجعت اليه اللغات الأخرى . والذين يخامرهم الشك في صلاح اللغة العربية بصورتها الثانية للدراسة الجامعية يبررون شكلهم بانتقطاع العربية لفترة طويلة عن مواكبة التهضمة العلمية المعاصرة ، وينشوء انكاراً وسميات لم تعرفها العربية من قبل ، ولم تأخذ لها مكاناً في مراجعها وكتبها .

الدراسة الجامعية تعني - فيما تعني - البحث والتتبع والرجوع الى المصادر والامهات وليس في العربية الان ما يسد حاجة الاستاذ الباحث والطالب المعقب لهذا يذهب من يذهب الى عدم صلاح اللغة العربية بصورتها الحاضرة الى الدراسة الجامعية .

والاعتراف بهذا الواقع لابد منه ، وانكاره لا ينبع العربية ولا يقدمها او يجعل منها لغة تقى بمتطلبات العصر بما جد فيه من علوم وفنون .

ولكن الاعتراف بهذا الواقع شيء والرضا عنه والسكوت عليه شيء آخر .

لتقي على هذا الواقع وتقره ونسترسل معه الى ان تصبح لغتنا لغة سوق ومنزل ام نعمل على

يزول كثير من غلط النطق ، وييسر حفظ المفردات بشكلها الصحيح .

انه بذلك قد تشوّه صورة الخط العربي المألوف ، وبياعد على وجه اليقين بينما وبين المؤثر من مخطوطاتنا ومطبوعاتنا ، الا ان علاج هذه المشكلة المستعصية يحتم علينا قبول ذلك ، ويفرض علينا التنازل عن بعض المزايا التي نجتنبها الان من المحافظة على جمال الخط ومن الارتفاع بالآثار المخطوطة .

على انه يمكن اعادة طبع المطبوع قدماً بالصورة الخطية الجديدة ، وبذلك نتجنب خسارة المؤثر .

علينا ان نوازن بين امرين : التيسير لمشكلة قائمة تتصل باجيالنا المعاصرة والقادمة ، وميزانية جمالية وأثارية لا يستشعرها الا المعاصرون . لقد اختلف شكل الخط العربي مرات متعددة عبر التاريخ ، ولابد ان يكون قد رافق كل تغيير مرات لبعض المزايا الجمالية والاثارية الا ان ذلك لم يوقف حركة التغيير حيث وجدت له ضرورة ، بل لـ من تستشعر انه حصل على اثر ذلك الكبير اسى او كبر فرحة بل لعلنا استشعرنا من الآثار ما يؤكد الارتيـاح للتغيرات التي حدثت بما استحدثت من صـور جمالية جديدة .

3 - مشكلة الاعراب - حركة الآخر -
تبقى بعد هذا حركة الاعراب القائمة على آخر الكلمة فان الاهداء اليها من العرب الخلص الاولى امر يستدعي العجب ، ويعنى فيها وطبعاً خاصاً ما تزال الحيرة تراود الباحثين بشأنه . وليس لدينا من وسيلة الان للالهداء الى ذلك الا تعلم « النحو العربي » ولكن تعلم النحو امر يتطلب جهداً شاقاً وانصرافاً جدياً ربما يعادل تعلم جملة علوم .

وفي رأيي أن تيسير ذلك يكون بالاعتماد على الاكتفاء من القراءة الصحيحة ، والدرية عليهما مستعينين على ذلك بما قدمت بشأن رسم الكتابة العربية لاستعمال بحركة الآخر المكتوبة بهيئة حرف على النطق رفما ونصبا وجرا . وبالدرية على النطق الصحيح عن طريق شكل الحرف الآخر .

اما التجارب التي استحدثت في تيسير النحو بالباء بعض ابوابه ، وبايجاز قسم منه فلم تكشف حتى الان عن نجاح ، وبقى ما كتب الاتدون ضرورة لازمة لمن يريد تعلم النحو العربي .

مشكلة المصطلح :

و فيما يصل بالمصطلاح العلمي فان مشكلته ثانية من ناحيتين :

ا) عدم كفاية المصطلحات العلمية الموجودة الان في اللغة العربية لسد حاجات ما جد من آراء وسميات . و سد هذه الحاجة ضروري لجعل العربية صالحة للتدريس في الجامعات وبخاصة في العلوم . و سبيل ذلك نهضة جدية تشارك فيها الجامعة العلمية والجامع اللغوية فيعد المتخصصون في الجامعة العلمية الى وضع المصطلحات كل بحسب اختصاصه وكما يراه انساب ، ثم تعرض على الجامع اللغوية للاستئثار والمناقشة والتشقيق والانتهاء الى افضل المصطلحات واكثرها مطابقة واتساعا مع الصيغ العربية ، ثم تعمم تلك المصطلحات على الدوائر العلمية والمعاهد والجامعات شىء من هذا يحدث الان ، لكن نشاطا اكبر و عملا اوسع لابد ان يعمل في هذا الباب .

ب) اختلاف المصطلحات بين عالم وآخر وجامعة واخرى ، وعلم وسواه ، وقطر وقطر الامر الذي يحدث البلبلة في المراد من هذه المعاني ، وهذه ظاهرة متوقعة في هذه الفترة من نهضتنا العلمية ، اذ لا تستقر المصطلحات وتأخذ مكانها الا بعد فترة من الزمن ، وبعد تداعع بينها الى ان يأخذ كل مصطلح مستقره في كتب الباحثين . ولو نظرنا الى مصطلحات العلوم والفنون التي نشأت في القرن الثاني المجري واوائل النهضة العربية لرأينا انها لم تأخذ مكانها من الاستقرار والثبات الا في القرن الرابع .

كل ما نستطيع عمله الان ان نختصر الوقت غالبا ما يمكن لأن تأخذ المصطلحات العلمية مكانها من الاستقرار .

تغيير هذا الواقع ، ونتقل بلفتنا الى ان تكون لغة علم ؟

ان عجز اللغة يعني عجز اهلها والناطقين بها ان يبلغوا درجة الوفاء بالاغراض العلمية وبهذا تلقى الثبعة عليهم لا على اللغة . ليست لغة الامة الا الصورة التعبيرية لما يجول في افكار ابنائها ، ولما يدخل في نطاق محصول المعرفة عندهم ، وليس بامكان اي لغة ان تكون شيئا غير هذا ، وسواء كانت بالعربية مرونة وسعة ووفاء بالاغراض الجامعية ام لم يكن ، فان ما عليه حال ابنائها من العلم هو الذي يمكنها من الوفاء او يقصر بها عن الوفاء .

ورأيي في المسالة ما يلى :-

ا) في الانسانيات :

في الفترة المعاصرة وبعد ترجمة كثير من الآثار الانسانية الاجنبية، وقيام جامعات عربية كبيرة يدرس فيها اساتذة عرب تخصصوا في علوم وفنون مختلفة ، وقدروا على نقل الاراء والافكار من لغاتها الاصلية الى اللغة العربية احسب ان تدرس العلوم الانسانية باللغة العربية امر ممكن من الناحية العلمية وامر واجب من الناحية القومية هذا مع الاستمرار على الالتفات باللغة الاجنبية والرجوع اليها كلما اقتضت ضرورة .

ب) في العلوم :

اما في العلوم البحثة فيما انه لم يكتب لها في العربية كتب امهات ولم يترجم فيها الى العربية منها قسط كان يفي بالبحث العلمي فان التدريس باللغة الاجنبية شيء لازم ، مع الحرص على تعریف العربية لها وتدخلها ، بتاليف كتب و مترجمات توضع تحت يد الطلاب وفي المكتبات تمهد لاقامة مكتبة عربية في هذه العلوم .